Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأملنا بعمق في ما جرى ما بين الفتى وأبيه في الجزء الثاني من الرواية، وجدنا ما يعضد ما ذهبنا إليه، فقد منع الشاب أباه من إلحاق الأذى بأمه، مهدداً أباه، إنْ فعل، بضربه بيد الهاون، وقد رفعها بوجهه حقاً، فأخمد عدوانيته وهزم جبروته وحطّم حيوانيته..! وقد كان هذا الإخماد والهزيمة والتحطيم متناغماً تمام التناغم مع حلول الأمن والاستقرار والهدوء اللاتي تأمنت للكاتب بعد أن توظّف، وصار له دخل ثابت، واستحال من حال إلى حال، فهو يقول: إنه بعد أن صار يقبض مرتباً شهرياً بنى جداراً ضد الجهل والاحتقار والتجاهل. وكم هو وجيه أن يعقد المرء مشابهة بين هذا الجدار، وبين يد الهاون التي حالت دون التهديد المستمر للأم الوديعة. فبين هزيمة جبروت الأب وهزيمة قسوة الحياة صلةٌ تشابُه لا تخفى... ويعمّق هذه الصلة أيضاً أن نلاحظ أن الأب بعد تلك الحادثة راح يبكي ذاته المهزومة عند الجيران، تماماً كما كان الابن يبكي جوعه وظلم أبيه في الصفحات الأولى من "الخبز الحافي"، فها هي ذي الأدوار إذاً تتبادل.

ومن ألوان الإيقاع في هذه الرواية بجزأيها، الصلةُ ما بين بدايتها ونهايتها، فقد افتتح الكاتب نصّه بتحيّة (طنجة) التي أحبّها حباً جماً، واختتم نصّه بقصيدة بعنوان (طنجيس) وهو الاسم الأسطوري لـ (طنجة) فقد قال في مطلع الجزء الأول:

"صباح الخير يا طنجة المُتفرسة في زمن زنبقي". وقال في خاتمة الجزء الثاني مخاطباً طنجة: "يحكون عنك أن طينة الخلاص منك وأن نوحا فيك قد تفيّأ الأمان، وأنه حمامة أو هدهد، وأنه غراب. وبين موجتين تناسلت طنجة ملء زبد البحار"(الشطار ص٢١٣). وتعارض الخطابين واضح، فبعد أن كان زمنها زنبقيا رجراجاً في مطلع النص ليتناسب مع زمن الراوي الرجراج المتقلّب، صار طينها طيناً للخلاص والأمان معاً. إن حب الكاتب لمدينة (طنجة) وغزله فيها، يمثلان رغبة دفينة في الامتلاء، بعد الفراغ القاتل الذي كان يلقاه في غيرها من المدن التي جال فيها وهي: تطوان ووهران والعرائش. فهو فيها لا يحسّ بالفراغ الممل، وفيها يمكن له أن يولّد من أكثر الأيام كآبة وعوزاً بعض المتع: العزلة فيها حرّة لها مذاق التوت البري، والعزلة في (تطوان) مفروضة ومرّة، ولها مذاق الحنظل- (انظر الشطار ص٩٥-٩٦).

وقد صرّح الكاتب ذات مرة بتعلقه بطنجة فقال: (لي أماكن في طنجة، لي ارتباط جدا بالمكان، أنا أقدّر ما يُسمّى بجمالية المكان في القصة أو في الرواية، رغم أنه مذهب كلاسيكي واقعي، ولكني مرتبط جدا بالأمكنة. وأحياناً لا أعرف